

هَارُونَ الرَّشِيدُ..

أَسَسَ بَيْتَ الْحِكْمَةِ الَّذِي ضَمَّ قَاعَاتِ ضَخْمَةٍ
لِلْكَتُبِ وَالْمُحَاضِرَاتِ وَالنَّاسِحِينَ وَالْمُتَرْجِمِينَ

يُعَدُّ هَارُونَ الرَّشِيدُ مِنْ أَكْثَرِ الشَّخْصِيَّاتِ
الَّتِي أُثِيرَ حَوْلَهَا الْجَدَلُ فِي تَارِيخِ الْحُكْمِ
الْمُسْلِمِينَ، فَتَارَةً تَذْكُرُ كُتُبَ التَّارِيخِ أَنَّهُ
مِنْ أَكْثَرِ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ جِهَادًا
وَعَزَاوًا وَاهْتِمَامًا بِالْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ،
وَتَارَةً تَزْعُمُ أَنَّهُ السَّارِقُ
الَّذِي جَعَلَ شُغْلَهُ

الشَّاغِلَ
الجَوَارِي
وَالخَمْرَ
وَالطَّرَبَ.

وَالرَّشِيدُ، هُوَ أَبُو جَعْفَرٍ هَارُونَ بْنُ الْمَهْدِيِّ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَنْصُورِ عَبْدِ اللَّهِ، الْهَاشِمِيُّ الْعَبَّاسِيُّ،
كَانَ مَوْلِدُهُ بِالرِّيِّ حِينَ كَانَ أَبُوهُ أَمِيرًا عَلَيْهَا وَعَلَى
خُرَاسَانَ.

دَفَعَ الْمَهْدِيُّ فَوْرَ تَوَلَّيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ بِإِثْنِهِ
هَارُونَ إِلَى التَّدْرُبِ عَلَى الْفُرُوسِيَّةِ وَالرَّمْيِ وَفُنُونِ
الْقِتَالِ، وَعِنْدَمَا أَصْبَحَ هَارُونَ شَابًّا يَافِعًا عَيْنُهُ
وَالدُّهُ قَائِدًا فِي السَّيِّسِ الَّذِي يَضُمُّ الْعَدِيدَ مِنْ
الْقُوَادِ الْكِبَارِ وَأَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ عُمُرُ الرَّشِيدِ
وَقْتَهَا لَا يَتَجَاوَزُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا. وَقَدْ اتَّسَمَ
الرَّشِيدُ مِنْذُ صِغَرِهِ بِالشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ، مَا أَهَلَّهُ
لِقِيَادَةِ الْحَمَلَاتِ فِي عَهْدِ أَبِيهِ، وَهُوَ لَمْ يَتَجَاوَزِ
العِشْرِينَ بَعْدُ.

تَوَلَّى هَارُونَ الرَّشِيدُ مَقَالِيدَ الْخِلَافَةِ، وَتَمَّتِ
الْبَيْعَةُ لَهُ بَعْدَ أُخِيهِ الْهَادِي، وَكَانَ ذَلِكَ بَدَايَةَ
عَصْرِ جَدِيدٍ قَوِيٍّ وَمُزْدَهَرٍ فِي تَارِيخِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ، فَلَقَدْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ مُتْرَامِيَّةَ الْأَطْرَافِ
مُتَعَدِّدَةَ الثَّقَافَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْأُصُولِ، مَا جَعَلَهَا
عُرْضَةً لظُهُورِ الْفِتَنِ وَالْمُؤَامَرَاتِ وَالثُّورَاتِ،
فَتَمَكَّنَ الرَّشِيدُ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِمَقَالِيدِ الْحُكْمِ بِيَدِ
مِنْ حَدِيدٍ، كَمَا تَمَكَّنَ مِنْ فَرَضِ سَيْطَرَتِهِ وَحُكْمِهِ
عَلَى جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ مِنَ الْبِلَادِ.

وَقَدْ ذَكَرَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ ذَا
فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَبَصَرَ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ، وَلَهُ نَظَرٌ
جَيِّدٌ فِي الْأَدَبِ وَالْفِقْهِ، كَمَا اتَّسَمَ الرَّشِيدُ بِالْوَرَعِ
وَالتَّقَى، حَتَّى قِيلَ إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي خِلَافَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ
مِئَةَ رُكْعَةٍ إِلَى أَنْ مَاتَ لَا يَتْرُكُهَا إِلَّا لِعَلَّةٍ، وَيَتَصَدَّقُ
مِنْ صُلْبِ مَالِهِ كُلَّ يَوْمٍ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ.

شَهِدَ عَهْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ نَهْضَةً شَامِلَةً فِي
كُلِّ قِطَاعَاتِ الدَّوْلَةِ، إِذْ زَادَتْ الْأَمْوَالُ الدَّاخِلَةُ
إِلَى خِزَانَةِ الدَّوْلَةِ، مَا عَادَ بِالرِّخَاءِ وَالِازْدِهَارِ
عَلَى أَرْكَانِهَا كَافَّةً، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّقَدُّمِ فِي
الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَغَيْرِهَا، فَشَهِدَ عَصْرُ الرَّشِيدِ
نَهْضَةً مَعْمَارِيَّةً أَيْضًا، فَبُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ وَالْقُصُورُ
وَحُفِرَتِ التَّرْعُ وَالْأَنْهَارُ، وَظَهَرَ الرِّخَاءُ فِي بَعْدَادَ
فَنَالَتْ حَظَّهَا مِنَ الرِّخَاءِ وَالِازْدِهَارِ، فَاتَّسَعَتْ
رُفْعَتُهَا وَبُنِيَتْ بِهَا الْمَسَاجِدُ وَالْقُصُورُ، كَمَا
شَهِدَتِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي عَصْرِهِ نَهْضَةً عِلْمِيَّةً
وَاسِعَةً، فَكَانَتِ الدَّوْلَةُ وَقْتَهَا الْمَلْجَأَ الْأَوَّلَ
لِلْعُلَمَاءِ مِنَ فُقَهَاءِ وَلُغَوِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ كُلِّ
حَدَبٍ وَصَوْبٍ، فَكَانُوا يَتَبَادَلُونَ الْعُلُومَ وَيُلَقِّنُونَ
الطُّلَابَ عُلُومَهُمُ الْمُخْتَلِفَةَ.

يَرْجِعُ الْفَضْلُ إِلَى الرَّشِيدِ فِي إِنْشَاءِ «بَيْتِ
الْحِكْمَةِ»، وَهُوَ أَشْبَهُ بِمَكْتَبَةِ ضَخْمَةٍ جُمِعَتْ
فِيهَا الْعَدِيدُ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ
كَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَغَيْرِهِمَا، فَكَانَتْ تَضُمُّ قَاعَاتِ
لِلْكَتُبِ وَأُخْرَى لِلْمُحَاضِرَاتِ وَغَيْرِهَا لِلنَّاسِحِينَ
وَالْمُتَرْجِمِينَ.

مَاتَ الرَّشِيدُ خِلَالَ إِحْدَى عَزَوَاتِهِ بِخُرَاسَانَ
سَنَةَ 193 هـ، وَقِيلَ إِنَّ الرَّشِيدَ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ
يَمُوتُ بِطُوسَ، فَبَكَى وَقَالَ: «احْفَرُوا لِي قَبْرًا»،
فَحَفَرَ لَهُ ثُمَّ جَمَلَ فِي قَبَّةٍ عَلَى جَبَلٍ وَسَبَقَ بِهِ حَتَّى نَظَرَ
إِلَى الْقَبْرِ فَقَالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ نَصِيرٌ إِلَى هَذَا»، وَأَمَرَ قَوْمَهُ
فَنَزَلُوا، فَبَكَى وَبَكَوا حَتَّى مَاتَ. وَرَحَلَ بِذَلِكَ وَاحِدًا
مِنْ أَعْظَمِ خُلَفَاءِ الْإِسْلَامِ، مَاتَ شَابًّا لَمْ يَبْلُغْ 45
عَامًا مِنْ عُمُرِهِ بَعْدَ تَارِيخِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الْمَشْهُودَةِ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ.